



قراءة في رواية:

دم لفطير صهيون

بقلم: د. محمد عبد العظيم بن عزوز
المغرب



الموضوع البارز في هذه الرواية الوثائقية، كما يسميها صاحبها^(١)، هو الجريمة، فذبح «البادري توما» من قبل اليهود واستنزاف دمه جريمة، وخيانة كاميليا لزوجها جريمة، وخيانة الخادم مراد الفتال لسيدته جريمة، والاحتكار والمراوغة في التجارة من قبل داود هراري جريمة، والتعامل بالرشوة.. من قبل داود دائماً للوصول إلى مصالحه الشخصية جريمة، مما يدل على فساد قيم اليهود، واستحالة نسبتها إلى مصدر إلهي كما يزعمون، وفساد سلوكهم وممارساتهم التي تنم على عدوانيتهم وتعديهم للحدود التي وضعها الله سبحانه، بارتكابهم لجرائم كثيرة في حق بعضهم وفي حق غيرهم من البشر، ممن ليسوا يهوداً. والأفزع في هذه الجرائم كلها أنها ترتكب باسم الدين.

١٢

وسلم، في رواية قاتل حمزة، فإننا نجده قد عانى كثيراً من الناحية النفسية والاجتماعية بسبب الجريمة التي اقترفها، مما يدل على أن اليهود أشد عداوة من غيرهم، لمن يخالفهم في عقيدتهم عملاً بنصوص دينهم التلمودية. وهم بذلك يعتبرون سيئاتهم حسنات وجرائمهم قربات.

لعل الوحدة والعزلة كانتا أفزع عقاب عوقب به داود هراري على جريمته. فأصدقاه اليهود تخلوا عنه طوعاً وكرهاً. فموسى أبو العافية ترك اليهودية واعتنق الإسلام، ورحل عن حارة اليهود. وأخوه يوسف وصديقه يوسف لينبادو رحلا عن الدنيا. وخادمه مراد الفتال رحل مع الخادمة «أستير» إلى وجهة مجهولة. وزوجته كاميليا

لا تتحدث الرواية عن ردود الفعل على الجريمة الرئيسية «ذبح القسيس» من قبل مقترفيها، اللهم إلا رد فعل الخاخام موسى أبي العافية الذي اكتشف فساد معتقداته اليهودية. وكان للسجن والتهديد بالتعذيب دوره النفسي في ردعه ورجوعه إلى ذاته متديراً مفكراً، وانتهى به تفكيره إلى اعتناق الإسلام. كذلك الشأن بالنسبة لسليمان الحلاق، لكنه لم يصل إلى درجة الإسلام. أما المجرم الأكبر داود هراري، فلم يشعر بشيء، كل ما كان يجول بداخله هو أنه استجاب لأمر ديني تأمر به عقيدته المخرفة.

وإذا وازنا بينه وبين وحشي بن حرب الذي ارتكب في جاهليته وأيام كفره وضلاله جريمة شنعاء، وذلك بقتله لحمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه

المرتجف فيرسم على الحيطان ظلالاً تبدو كالأشباح الخرافية، وأخذت كاميليا تنظر يمنة ويسرة وتنتقل في قلق من مكان إلى مكان ...

ها قد أتى مراد الفتال ... تشبثت به كأغلى أمنية تفوق الدين والدنيا بالنسبة لها ... كان يرتجف .. لكنها قالت ... تصور يا مراد أنني غريبة .. غريبة جداً! أحياناً كثيرة أحب القذارة .. هذه الغرفة بما فيها من تراب وظلام وأتربة وصراصير وأغراض قديمة .. تلذ لي .. تبعث النشوة العارمة في كياني ... يا مراد هذه الحجرة القذرة الصغيرة هي جنتي الموعودة ..» (٢)

يقول الدكتور نجيب الكيلاني معبراً عن الأبعاد الدلالية لكامليليا في رواية «دم لفطير صهيون»: «إن زوجة داود هراري كاميليا مثلاً لم يقصد بها سوى إبراز التناقض الحاد، والعنف الاجتماعي، والاضطراب العاطفي، الذي تفرزه التعاليم الزائفة المستقاة من شروح التلمود، وتعززه القيم الفاسدة، التي درج عليها المجتمع اليهودي، بما يسيطر عليه من جشع وأنانية ومادية مفرطة .. كاميليا رمز حيوي متحرك، وتجسيم لمأساة الضلال اليهودي القديم، وصورة صادقة للعقد النفسية .. التي ينضح بها التاريخ الطويل لملة أصابها الزيف والشطط عبر العصور ..» (٣)

لم يصور الكاتب فقط هذا الجانب من كاميليا، بل جعلها تمر بمراحل نمو نفسي، بفعل تتابع الأحداث المفاجئة، وشدها عليها، فتمكن من خلالها من مراجعة نفسها وسلوكها، وتقرر الإقلاع عن هذه الفاحشة المخزية والعيش في ظل علاقة صافية طاهرة مع زوج آخر.

وهكذا كان نموها نمواً إيجابياً من الأسوأ إلى الأحسن، دون أن يدفعها ذلك إلى التخلي عن المنظومة العقدية الصهيونية، التي تؤمن بها، ولكنها بفطرتها أدركت فظاعة ما تقترب من آثام، وعملت على إصلاح حالها.

وهذا مظهر من مظاهر إسلامية هذه الرواية، على رغم أن معظم شخصياتها يهودية صهيونية، بخلاف بعض الروايات الغربية التي تناولت القضية نفسها، وجعلت منها موضوعاً للرئيس. ونذكر منها رواية «السيدة بوفاري» Madame Bovary لكوستاف فلوبيير (1821-1880) Gustave Flaubert والتي جعل الروائي من شخصيتها الرئيسة «إيمّا» Emma - التي تخون زوجها، الذي كان يحبها ويتشبث بها بقوة - بطلنة تحقق ذاتها - كما يقولون - وتلي رغباتها بحرية.

رحلت عنه وتركت وحده نهياً لأحزانه وآلامه. وصديقه سليمان الحلاق لم يعد له صلة به، لكون داود اعتبره خائناً وجباناً باعترافه بالجريمة. وعموم سكان دمشق قاطعوا داود هراري وبقية اليهود الذين اشتركوا في جريمة ذبح البادري توما وخادمه إبراهيم عمار، وأخذوا يزددونهم ويحتقرونهم بتعليقاتهم ونظراتهم. لم يجعل الكاتب من الخيانة الزوجية في هذه الرواية مظهراً بطولياً بالنسبة لكامليليا التي تفيض حيوية ونضارة وأنوثة وجمالاً. والتي انتصرت على عجز زوجها الجنسي، وعبرت عن إيجابيتها برفضها الخضوع للأمر الواقع، وبسعيها الدائم لتغيير هذا الوضع لصالحها، فاستفادت من ذلك من الناحية الجسدية، وحصلت على المتعة الجنسية التي افتقدتها عند زوجها. بل صورها من منظور إسلامي على أنها سلوك مخالف لشرع الله وللأخلاق وللوفاء والإخلاص الذي يجب أن يكون بين الأزواج. ولم يبالغ في تصويرها مبالغة تشعر القارئ بأنه يؤيدها ويباركها، بل كانت إشارات إليها مقتضبة، على رغم ما اعترافها من أوصاف ضرورية من الناحية الفنية لتجسيد بشاعة هذه الجريمة، ولتنفير القارئ منها. يصف كاميليا في مظهر مثير وجذاب، وهي مقبلة على ارتكاب هذه الفاحشة، بقدر ما يصف فضاء هذا الحدث بما يليق به من أوصاف منفرة تبعث على التقزز والاشمئزاز. وبذلك تتغلب البشاعة على الجمال، والقذارة على النضارة مادام هذا الجمال وهذه النضارة لم يوضع في موضعهما اللائق بهما في ظل العلاقة الزوجية الشرعية. وفي ذلك توجيه من الكاتب للقارئ، إلى أن الخلق القبيح لا يمكن أبداً أن يكون جميلاً مادام يمثل انحطاطاً في القيم والسلوك والنفوس، ومجافاة للفطرة التي فطر الله الناس عليها. وبذلك فصاحبها يسعى جاهداً إلى التستر والتكتم خوفاً من انكشاف أمره. وأين يستتر عن جرميته وهو يدرك أنها مرفوضة من الجميع؟ إنه يستتر في الأماكن التي تنصرف عنها الأنظار لا تساخها وقذارتها، إما حسياً وإما معنوياً، وفي الأمثلة الآتية من هذه الرواية يجمع الكاتب بينهما: «بين القذارة الحسية في المكان، والقذارة المعنوية فيما يرتكب بداخله من فاحشة» يقول الراوي «.. ها هي كاميليا تتسلل إلى حجرة في آخر الدهليز الأرضي، لا يقربها أحد. وللدليل باب صغير في الإمكان إغلاقه بإحكام، وفي نهاية الدهليز حجرة صغيرة قدرة تمتلئ بالأتربة ... كانت كاميليا تلبس ثوباً شفافاً يبرز مفاتن جسدها، وفي يدها شمعة يتحرك لهبها



وقد عمل فلوبيير على إبراز الخيانة الزوجية في مظهر جميل وحلة زاهية، ليؤكد للقراء أنها فعل جميل، فاستعمل في ذلك من الأوصاف الشاعرية المثيرة، ما يحجب الفاحشة إلى ضعاف النفوس، ومنعدي الإيمان. وفي ذلك خداع للقراء وسعي لمغالطتهم وتغيير مفاهيمهم عن هذا السلوك الشائن بتزيينه لهذه الفاحشة، وهذا لا يختلف كثيراً عما يفعله شياطين الإنس والجن الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى: «يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا»^(١).

وبهذه الطريقة يعمل الأدب على تكوين وجدان القراء وفق الأهداف التي يضعها الكاتب نصب عينيه، وذلك من خلال الوسيلة الفنية التي يتوسل بها في ذلك وهو الجمال الشكلي لإخفاء القبح المضموني، أو بالأحرى لإبراز المضمون على أنه مساو للشكل في جماله وجاذبيته. بينما المطلوب من الرؤية الإسلامية أن يكون الشكل الجميل وعاء للمضمون الجميل، فلا يكون هناك تكلف وتصنع أو خداع وتزييف.

وقد أثارت هذه الرواية بفداحة قيمها الفاسدة، وبقلبها للحقائق والمفاهيم المتعارف عليها زوبعة من الاحتجاج، من قبل القراء والمهتمين، لكن سرعان ما سكنت العاصفة وهدأت الزوبعة، وصارت «السيدة بوفاري» مثلاً وقذوة، اقتفى أثرها روائيون آخرون في رواياتهم ونساء أخريات في المجتمع الفرنسي الذي جنى عليه أدبه المنحل.

أتساءل، في الأخير، هل الشخصية الصهيونية شخصية موحدة؟ هذه الشخصية موحدة لأنها تنطلق من عقيدة موحدة (الصهيونية)، وتسير وفق منهج واحد (الخداع والمراوغة والحقد والكراهية...) إلى هدف واحد (النيل ممن ليسوا يهوداً، والتكثّل والتوحيد لتحقيق الأهداف البعيدة، التي طالما حلم بتحقيقها الأجداد، والمتمثلة في استرجاع مملكة سليمان واحتلال فلسطين وعاصمتها القدس...).

ومن ثم فهي شخصية ثابتة لا تتطور ولا تنمو. ففكرها في بداية الرواية هو هو في آخرها لم يتغير. وإن بدا أنه (أي داود هراي) أخذ يتملص من كلمة «مقدس» (أي كل ما هو ديني)، لأنه كان في وضع لا يحسد عليه، وأزمة نزلت بثقلها عليه، وهو فراق زوجته له، وهي التي من أجلها ارتكب جريمة ذبح القسيس ليصنع من دمه فطيره «المقدس» الذي جلب عليه

الكثير من المصائب خارجياً وداخلياً. ثم إنه شخصية موحدة لأن قاعدته الفكرية واحدة، تكونت من خلالها عقليته ونفسيته، وتجلت بوضوح في سلوكه وممارساته.

حقيقة أنه كان يعيش نوعاً من الثنائية التقابلية بين ظاهره وباطنه لكنها مع ذلك كانت تجد مبرراتها ومسوغاتها، وطرق التخلص من بعضها الذي يرفضه، في الدين وفي العقيدة الصهيونية.

فهو قوي في الظاهر، ضعيف في الباطن، فقوته تتمثل في تدينه الظاهري، في مراوغاته التجارية، في نفوذه لدى أصحاب السلطة، ثم في صرامته في تسيير شؤون بيته، وفي قوة شخصيته الظاهرية.

أما ضعفه فيتجلى في ضعفه الجنسي (في علاقته بزوجته). وفي كونه غير متدين في العمق، فخادمه يعرف أسراراً كثيرة عنه لا تعرفها زوجته^(٢)، ثم إنه معروف أمام الناس باليهودي الصالح، بينما هو في العمق غير صالح، فكيف يكون الصلاح مع سفك دماء الأبرياء، ومع النظرة العنصرية المتعالية للناس، وأكل أموالهم بالباطل (الاحتكار التجاري).

وخير ما أختم به هذا الاستنتاج هو تعليق للكاتب نفسه على روايته يبرز من خلاله الهدف من كتابتها. يقول نجيب الكيلاني:

«إن حقد الصهيونية على المسيحية قديم، ومؤامراتها ضد الإسلام والمسلمين لا تخفى على أحد، وليس وراء هذه القصة من هدف سوى أن تعيد للأذهان حلقة من سلسلة طويلة من العداء الصهيوني ضد الإنسانية جمعاء. لعل العالم المسيحي والعالم الإسلامي أيضاً يدركان خطر الموقف، وما يحفل به المستقبل من كوارث يطويها الحقد الصهيوني في قلبه الأسود منذ قرون طويلة، ولعل ذلك يكون ناقوساً يدق في عنف يوقظ النيام وسماسرة السياسة، والمتلاعبين بالألفاظ، وأدعياء البطولة، كي يعلموا أن الأمر جد خطير وأن المعركة حاسمة...»^(٣)

هوامش

(١) انظر كتابه: تجريتي الذاتية في القصة الإسلامية، دار ابن حزم - بيروت - ط ١/ ١٩٩١ م ص: ٥٥

(٢) دم لفطير صهيون، ص ٢٣-٢٦-٢٧

(٣) نفسه، تذييل، ص ١٣٩

(٤) سورة الأنعام، آية: ١١٢

(٥) انظر ص ١٨ من الرواية

(٦) نفسه، تذييل ص ١٤٠